الفصل الأول

دور الوقف في تنمية المجتمع في الماضي

ويأتي في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دور الوقف في مجال الدعوة الإسلامية.

المبحث الثانى: دور الوقف في الناحية التعليمية والتثقيفية.

المبحث الثالث: دور الوقف في التنمية الاجتماعية والرعاية الصحية.

تمهيد

إن الوقف يعد من مآثر الإسلام ومفاخره لإصلاح حياة المجتمع، فهو مصدر خير للمجتمع الإسلامي وباعث إلى نشر الدعوة الإسلامية. ولقد أدت الأوقاف الإسلامية الخيرية دوراً مهماً في نهضة التعليم، ونمو المجتمع ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.

ولقد كان الوقف من أنجح الوسائل في علاج مشكلة الفقر، حيث إن المسلمين تتبعوا مواضع الحاجات مهما دقت وخفيت فوقفوا لها، حتى أنهم عينوا أوقافاً لعلاج الحيوانات المريضة وأخرى لإطعام الكلاب الضالة.

قال ابن بطوطة عن مدينة دمشق: «إن أنواع أوقافها ومصارفها لا تحصر لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم. . .»[١].

«. . . . . ولقد تم وقف الأوقاف الكثيرة في بلاد العالم الإسلامى على العلماء ودور العلم، والجوامع، والمبانى العامة، لتبقى دائمة الانتفاع، وتكفى العلماء مؤونة قرع أبواب الملوك والأمراء، والمحاويج وأصحاب الزمانات والعاهات من التكفف والاستجداء»[٢].

---

(١) المقتطف - ج ٥، من المجلد ٢٨. عدد ١ مايو سنة ١٩٠٣م (٣ صفر سنة ١٣٢١هـ)
(٢) المصدر السابق.

ولقد كان الوقف من أهم المؤسسات التى كان لها دورها المؤثر في التطور والنمو الاقتصادى في مختلف عصور الإسلام. ولم يقتصر تأثير الوقف الإسلامى على المسجد وحده، فقد أوقف المسلمون العديد من المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، من أجل تطوير مجتمعاتهم، فأنشأوا المشافى والملاجىء والمدارس والمكتبات وغيرها، وجعلوها أوقافاً لعامة المسلمين.

هذا وقد عدد أحد الباحثين ثلاثين نوعاً من أنواع المؤسسات الخيرية التى تم إنشاؤها والإنفاق عليها من ريع الأموال الموقوفة[١]:

فمن أول المؤسسات الخيرية: المساجد، حيث كان الناس يتسابقون إلى إقامتها، ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التى يؤسسونها.

ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمشافى (البيمارستانات).

ومن المؤسسات الخيرية أيضاً: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين. ومنها: التكايا والزوايا التى ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل. ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء، يسكنها من لا يجد ما يشترى به أو يستأجر داراً. ومنها: السقايات، أى تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً. ومنها: المطاعم الشعبية التى كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء وحلوى.

ومنها بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام،

---

(١) من روائع حضارتنا - د/ مصطفى السباعى - دار الوراق، ط ١٤٢٠هـ - ص ١٩٩ - ٢٠٤ (بتصرف).

ومنها: حفر الآبار في الفلوات لسقى الماشية والزروع والمسافرين، ومنها: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبى على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله. ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله، ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها لمن يريد الجهاد، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل.

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر، يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة. ومنها: ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعى، فقد كانت كثيرة ومتنوعة، فهناك مؤسسات للقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفورى الكرامة، لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

وهنالك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستواهم، وإمدادهم بالغذاء اللازم. ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات ممن تضيق أيديهم أو أيدى أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.

وهناك مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة ميزابا يسيل منه الحليب، وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتى إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادى للأولاد الذين يكسرون الزبادى وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادى

جديدة بدلاً من المكسورة.

ومن أروع المؤسسات الخيرية تلك المؤسسات التى أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة أو لإطعامها، أو لرعيها حين عجزها، كما هو شأن المرج

الأخضر في دمشق، حيث كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى منه حتى تلاقى حتفها.

تلك أمثلة رائعة قدمناها بين يدى هذه الدراسة للمؤسسات الوقفية كدليل على نجاحها في المجتمع الإسلامي، وهى بلا شك أمثلة كثيرة، وغَيْضٌ من فيَضْ، وقُلٌّ من كُثْر، يستحيل أن يحصيها العد، لأنها لم تنقطع خلال أربعة عشر قرناً، وماتزال متصلة، نرى من أفرادها جيلاً بعد جيل من يمثلون فضائلها وأخلاقها، بسلوكهم ومعاملاتهم، أفضل تمثيل[1].

هذا وسوف نتناول بعضاً من هذه المؤسسات بشيء من التفصيل من خلال المباحث التالية.

(١) الوقف في الفكر الإسلامي - للأستاذ/ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله - من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية - ط ١٩٩٦م - ص ١٦٧ (بتصرف).

المبحث الأول

دور الوقف في مجال الدعوة الإسلامية

كان للوقف دور هام ومؤثر في نشر الدعوة الإسلامية وتعليم المسلمين أمور دينهم ودنياهم، وذلك من خلال عدة مؤسسات كان في مقدمتها المساجد، ثم الربط والخوانق والزوايا والخلاوى.

أولاً: المساجد:

اهتم المسلمون بأمر المساجد منذ فجر الإسلام، وأولوها عنايتهم ورعايتهم، لأن لها أثراً كبيراً في توجيه المجتمع، ونشر تعاليم الدين الإسلامى.

فالمسجد في نظر الإسلام ليس مكاناً للعبادة فقط، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك مكاناً تنطلق منه الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو ينهض برسالة التثقيف والتنوير ونشر الوعى الدينى السليم.

وقد ظل المسجد قروناً طويلة يؤدى هذه الرسالة بكفاءة واقتدار، كما كان للوقف الخيرى دور فاعل في دعم هذه الرسالة واستمرارها[1].

وقد كان المسجد هو محور سياسة الوقف في هذا المجال، سواء من

---

(١) اقتصاديات الوقف - د. عطية عبد الحليم صقر - دار النهضة العربية بالقاهرة - ط ١٩٩٨م - ص ٥٧، ٥٨ (بتصرف).

حيث إنشائه، أو الصرف على مصالحه ومهماته وعمارته ومرماته، أو من حيث ترتيب من يقومون بإمامة الناس في الصلاة، والخطابة والأذان، والاهتمام بنظافة المسجد، وتوفير المياه اللازمة له، وكذلك الإضاءة، أو من حيث إلحاق منشآت أخرى بالمسجد، كدور المناسبات أو المؤسسات التى تؤدى بعض الخدمات، وخاصة في مجال التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية[١].

وقد نال الوقف على إنشاء المساجد والإنفاق عليها، اهتمام المسلمين وعنايتهم منذ عهد النبوة، حيث أن أول وقف في الإسلام هو مسجد قباء الذى أسسه النبى ﷺ حين قدومه إلى المدينة، ثم المسجد النبوى الذى بناه النبى ﷺ في السنة الأولى من الهجرة، ثم انتشر بناء المساجد والوقف عليها في عهد الخلفاء الراشدين، وفى عهد بني أمية وبني العباس.

وممن اشتهر أيضاً بالوقف على المساجد: الفاطميون عندما أنشأوا الجامع الأزهر عام ٣٥٩هـ واوقفوا عليه الدور والمزارع، وصلاح الدين الأيوبى ونور الدين الزنكى في الشام ومصر. كما اتسع نطاق الوقف على المساجد في عهد المماليك والعثمانيين.

فلم تكن المساجد في كل البلاد الإسلامية إلا مساجد وقفية، ثم إن خدماتها، وصيانتها، كانت مما حبس عليها من الأموال الوفيرة لتأدية وظائفها المتعددة، حيث لم تكن المساجد مجرد دور للعبادة فقط، وإنما كانت مراكز لاجتماع الأمة ومبايعة الخلفاء، واستقبال الوفود والسفراء، وأماكن للتقاضى وفض الخصومات، وغير ذلك من الشؤون العامة.

---

(١) الأوقاف والسياسة - ص ١٤٥(بتصرف).

وأكثر ما استخدمت المساجد له، مراكز للتعليم، فكان الرسول ﷺ أول من استخدم مسجده مكاناً للدعوة والتعليم والإرشاد، وترَّسم صحابته - رضوان الله عليهم - خطاه من بعده، فاستمرت حلقات العلم في مسجده ﷺ بالمدينة المنورة، والمسجد الحرام بمكة المكرمة.

ولقد كان للمسجد دوره العظيم في بناء المسلم - عقيدة وعبادة وأخلاقاً - على إمتداد تاريخ الأمة الإسلامية، ذلك أنه بدون المسجد لا يتعلم عامة المسلمون أحكام دينهم، وتنظيم أمور دنياهم، واستبصار الحلال والحرام في حياتهم.

وقد اشتهرت مساجد وجوامع متعددة في العصور الإسلامية، كانت قبلة أنظار العلماء والمتعلمين، كان في مقدمتها المسجد النبوى والحرم المكى، ثم كثرت وفاضت بعد ذلك المساجد فكان منها: مسجد الكوفة سنة ١٤هـ، ومسجد البصرة سنة ١٧هـ، والمسجد الأموى بدمشق سنة ١٩هـ، وفي مصر جامع عمرو بن العاص سنة ٢١هـ، وجامع ابن طولون سنة ٢٥٨هـ، والجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ.

وانتشرت في هذه المساجد الحلقات العلمية، فلم تقتصر على الحلقات المتخصصة بالدراسات الدينية واللغوية، بل تعدتها إلى سواها من معارف ذلك العصر كالطب والفلك والحساب وغيرها.

ولقد انتشرت المساجد إنتشاراً كبيراً في أنحاء العالم الإسلامى، وقام الخلفاء والأمراء والأثرياء - طوال قرون مضت - ببناء المساجد ووقف الأعيان التى تدر دخلاً للإنفاق عليها، وذلك إنطلاقاً من دعوة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفعل الخير الكامن في النفوس، لتعمير المساجد وبنائها وصيانتها والاهتمام بها، على اعتبار أنها إحدى الصدقات الجارية.

ثانياً: الرُبط[١]:

الرباط إسم المكان الذى يأوى إليه الجند ويقيمون فيه لحراسة ثغور البلاد الإسلامية من الأعداء. ولم تقتصر المرابطة على المجاهدين، بل شملت العلماء والفقهاء والأطباء وغيرهم.

وقد انتشرت الرُبط في مصر والشام، وفي الجزيرة العربية، وبلاد المغرب العربى التى كانت تطلق عليها عدة أسماء منها: الحصون، والمحارس، ودور المرابطين. وبمرور الزمن، ومع إقبال الناس على المرابطة، أضافت تلك الربط إلى وظيفتها العسكرية، وظيفة التدريس والتأليف من قبل العلماء والفقهاء المرابطين فيها.

وقد حظيت هذه الربط، باهتمام المسلمين، فكثر الواقفون عليها، حيث أنها تجمع بين الجهاد في سبيل الله والتعليم والعبادة، وهذه المصارف كانت محل اهتمام المسلمين على مر العصور.

وخلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ازدهرت الربط بسبب ما وقف عليها أهل الخير من الأموال، وقصدها طلاب العلم من كل مكان لطلب العلم، ومما ساعدهم على ذلك وجود السكن والإعاشة.

وحين استقرت أحوال البلاد الإسلامية، تغيرت وظيفة الربط الأساسية، لتكون دور علم وتعليم. وإلى جانب ذلك كان العلماء يقومون بالتأليف ويحبسون تصانيفهم على طلابهم، ونتيجة لذلك نمت المكتبات وتكاثرت المخطوطات الموقوفة بتلك الربط.

هذا وقد قام أهل الخير بوقف عدد كبير من الربط بمكة المكرمة،

---

(١) رحلة ابن بطوطة - دار صادر بيروت ١٩٦٤م - ص ١٧٦ ومابعدها (بتصرف).

والمدينة المنورة، وجدة، والطائف وغيرها من مدن المملكة العربية السعودية، وقد خصص معظمها لإيواء الفقراء والمساكين وطلاب العلم، والبعض قد وُقف على حجاج بلاد معينة، والغرض من ذلك مساعدة الفئات الفقيرة من الإقامة بالقرب من الأماكن المقدسة، وتأدية مناسك الحج والعمرة بيسر وسهولة[١].

ومن أشهر الربط في مكة المكرمة[٢]:

١ - رباط ربيع: الذى أنشأه الملك الأفضل ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين في منطقة أجياد عام ٥٩٤هـ، ووقف فيه كتباً كثيرة.

٢ - رباط الشرابى: أنشئ في عام ٦٤١هـ، وكان موقعه عند باب بنى شيبة.

٣ - رباط الخوزى: أسسه الأمير قرامر بن محمود الأقدرى الفارسى عام ٦١٧هـ.

٤ - رباط الموفق: أنشأه القاضى الموفق جمال الدين على بن عبد الوهاب الأسكندرى ووقفه على فقراء الغرباء ذوى الحاجة في سنة ٦٠٤هـ.

٥ - رباط قايتباى: أنشأه السلطان قايتباى بجوار مدرسته بالقرب من الحرم المكى.

ومن أشهر الربط في المدينة المنورة[٣]:

---

(١) الأوقاف فى المملكة العربية السعودية، ص ٨٦.

(٢) الوقف وبنية المكتبة العربية - يحيى محمود ساعاتى - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض - ١٤٠٨هـ - ص ١٠٩ - ١١٢ (بتصرف)

(٣) الوقف وبنية المكتبة العربية - يحيى محمود ساعاتى - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض - ١٤٠٨هـ - ص ١٠٩ - ١١٢ (بتصرف).

١ - رباط قراء باشى: أسسه عبد الرحمن أفندى في عام ١٠٣١هـ، وكانت فيه مكتبة أضيفت عليها مجموعات وقفية خلال مراحل متعددة.

٢ - رباط عثمان بن عفان: وهو من أوقاف المغاربة، وكان يضم مكتبة معظم كتبها في الفقه المالكى على بعضها أسماء مالكيها.

٣ - رباط مظهر الفاروقي: أنشىء في عام ١٢٩١هـ، على يد محمد مظهر الفاروقي.

ثالثاً: الخوانق والزوايا والخلاوى[١]:

عرف العالم الإسلامى مؤسسات أخرى تشبه الربط في وظائفها الدينية والتعليمية، وهى الخوانق والزوايا والخلاوى، وقد لقيت هى - أيضاً - العناية والرعاية من المهتمين بأعمال البر والموسرين، وأهل الخير.

أ - **الخانقاه** - وجمعها خانقاهات وخوانق - هى كلمة فارسية بمعنى «البيت» وتبنى على هيئة مسجد بدون مئذنة، ويحيط بها عدد من الغرف مخصصة لإقامة الفقراء، وعابرى السبيل.

وقد رتب فيها العلماء والمشايخ دروساً في مختلف العلوم. وقد ذكر المقريزى أن «الخانقاه الصالحية الكبرى» بالقاهرة، رتبت فيها دروس في علوم الشريعة والفقه والحديث، وزودت بخزانة للكتب.

ب - الزوايا:

وهى كالخانقاه، ولكنها أصغر من حيث المساحة، وتقام على الطرق،

---

(١) الأوقاف في المملكة العربية السعودية، ص ٨٦ - وأصالة حضارتنا العربية، لناجى معروف - دار الثقافة بيروت ط٣ سنة ١٩٧٥م، ص٤٦٥.

والأماكن الخالية، وقد تقام في أحد أركان المسجد، وكان هناك من يقف عليها، وعلى مرتاديها من الفقراء، ويخصص لها شيخ لتدريس القرآن والعلوم الشرعية.

جـ - الخلاوى:

جمع خلوة - وهى مدرسة لتدريس القرآن الكريم، والعلوم الشرعية، وقد أطلق عليها هذا الإسم لأنها كانت تقام تحت بناء المسجد، وهو المكان المخصص للصلاة في الشتاء. ويقال إنها سميت بذلك لأن المعلم يخلو فيها بطلابه، أى يبتعد بهم عن الأماكن التى يكثر ارتيادها.

وقد انتشرت الخلاوى في بعض الدول الأفريقية وخاصة السودان، وقد وقف عليها، وعلى مشايخها وطلابها، أهل الخير أوقافاً مكنتها من أداء مهمتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من النساء المسلمات أنشأن المساجد والخوانق والرُبط، في مصر، والعراق، والحجاز، والشام، وكلها متوَّجة بأسمائهن. ومن أشهرها:

١ - رباط الحجازية: الذى أنشأته السيدة فوز جارية على بن أحمد الجرجرائى الوزير بجوار مسجدها بالقاهرة سنة ٤١٥هـ وأوقفته على أم الخير الحجازية، وكانت الحجازية واعظة زمانها، وقد تصدرت حلقات الدرس والوعظ في جامع عمرو بن العاص، كما عنيت بتثقيف المقيمات بهذا الرباط.

٢ - رباط البغدادية: الذى أمرت بإنشائه السيدة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ، وأنزلت به الشيخة الصالحة زينب ابنة أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية، ومعها عدد من

السيدات الخيرات، وأمرت بالصرف عليهن.

٣ - خانقاه أم أنوك: أنشأتها السيدة طغاى أم أنوك زوجة الناصر محمد ابن قلاوون حوالى سنة ٧٤٥هـ، ورصدت عليها الأوقاف الكثيرة، وقررت لكل جارية من جواريها مرتباً.